اصل المصريين الحاليين

ونسبتهم الى قدماء مصر

[خطبة القاها الموسيو ماسبيرو مدير مصلحة الآثار المصرية في نادي رمسيس مساء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وحررها توفيق افندي حنين ونشرتها جريدة مصر فنقلناها عنها بتصرف قليل]

ايها السادة

ان جميع الشعوب التي كان لها ماضٍ مجيد تهتم اهتماماً دائماً بامر اصلها . فهي تناجي نفسها قائلة "هل نحن السلالة الحقيقية لذلك الشعب العظيم الذي اشتهرت به سابقاً البلاد التي نحن اليوم فيها ام جدّ بيننا وبينهُ عنصر آخر نشأ عن الامتزاج البطيء غير المحسوس او عن الغزو والفتح بشكل اشد . ولم يهدأ احد تلك الشعوب عن الاهتمام بهذا الامر . ففي فرنسا وفي ايطاليا وفي اليونان تعرض هذه المسألة على بساط البحث بان يتساءل فرنسويو هذه الايام وايطاليوها ويوناتيوها هل هم سلالة قدماء الغاليين والرومان واليونان

اما الجواب على هذا السؤال فهو على الدوام "نعم نحن سلالتهم" وهو جواب تقضي به العظمة الوطنية كما انهُ مطابق للصواب بوجه الاجمال

وقد عرضت المسألة نفسها على معرض البحث في مصر . وفي استنتاج وجوب الاجابة عليها بنفس هذا الجواب . فان الشبه بين سكان القطر المصري واسلافهم بقي متسلسلاً حتى ايامنا هذه . على ان المصريين قد مرّ عليهم في آلاف السنين التي قطعوها من طوارق الحدثان ما يجعل الذين اخلفوا الفراعنة الاول والذين حلوا محلهم هذه الايام محقين في التساؤل هل كانوا من سلالتهم رأساً او لا

وقبل الاجابة على سؤال كهذا او للاجابة عليهِ على الاصح يلزم اولاً ان نتساءل عن ماهية العنصر المصري السابق . فهذه هي الطريقة الوحيدة التي نعرف بواسطتها هل هو يتفق مع عنصر هذه الايام

على ان الخطاء عام في تعريف مسألة العنصر او الجنس . اذ عند ما بدأ الالمام باصول الاجناس يثبت في الاذهان في اوائل القرن التاسع عشر فهم "الجنس" بانهُ مجموع رجال من دم واحد يتكلمون لغة واحدة ويقطنون بلداً واحداً . ولكن الاشياء متى نظرت من جهة قريبة ظهر الاختلاف في منظرها . فانهُ من الممكن ان يوجد حتى اليوم بعض مجتمعات

من الناس تتكلم لغة واحدة وتقطن بلداً واحداً ويكون دمها واحداً حقيقة لم يمتزج بدم آخر على التقريب فاذا وجد شيء من هذا القبيل فهو مستثنى . ولنؤكد ان هذا الجنس المستقل او اي الذي لم يمتزج بجنس آخر) اما ان يكون موجوداً بحالة استثنائية او انه غير موجود اصلاً . اذ قد اصبح كل بلد بفعل الامتزاج والاتحاد بشعوب اخرى كبوتقة واسعة تذوب فيها العناصر المختلفة ويتحد بعضها ببعض بلا انقطاع . ومن هذا الاتحاد يتكون سكان ذلك البلد . فكل شعب يعدُّ اذن نتيجة الاختلاط المستمر الذي لتعين طبيعتهُ من طبيعة البلاد التي يقطنها ذلك الشعب

ومهما توغلنا في ماضي مصر — بغير تطبيق اهمية على الزمن الذي يختلف فيهِ العلماء — فلسنا نصادف فيها عنصراً نقياً . بل نجد شعباً مكوناً من عناصر مختلفة لا يزال اكثرها مجهولاً لدينا

اننا اذا نظرنا الى الشعب المصري من الوجهة اللغوية وجدناهُ في مركز متوسط بين الشعوب الافريقية والشعوب السامية . واذا نظرنا اليهِ من الوجهة الادبية [1] ظهر لنا انهُ ينتسب على الاكثر الى العناصر الافريقية البيضاء ولكن مع بعض اختلاط بالعناصر الاسيوية

وهناك امر واحد تحققناهُ من بين الاصول الاولية المحاطة بالشكوك التي تكوَّن منها العنصر المصري . ذلك الامر هو ان الامتزاج كان دقيقاً جداً حتى انهُ يظهر لنا من اقدم الآثار عهداً وجود التماثل بين مصر في الازمنة البعيدة في القدم وبينها في الازمنة القريبة وقد كان تمدنها في تلك الازمنة افريقياً محضاً . فان العلامات الهيروغليفية التي هي اقدم شاهد على ذلك التمدن مأخوذة من اشكال الحيوانات والنباتات الافريقية الا بعض الرموز كالتي تشير الى الخيل مثلاً فانها ادخلت الى مصر على مر الاجيال

وقد كان الشعب نفسهُ على مثل الاوصاف الجسدية والادبية التي نراها فيهِ اليوم . ففي ما يختص بالاوصاف الجسدية اذهبوا الى متحف[2] تجدوا في التماثيل والنقوش الاشكال التي انتم عليها اليوم نفسها . فانكم ترون اشخاصاً طوال القامة نحيفي الاجسام عليهم سمات النبل والشرف . ثم ترون بجانبهم عنصراً صغيراً ثقيلاً تظهر عليهِ قليلاً العلامات العامية . وفي كلتا الحالتين تغلب علامات اللطف والبشاشة على اكثر الهيئات

وقد كان هذا الشعب يميل الى الجذل كشعب اليوم . فكثيراً ما صوَّر الاشخاص بهذه التماثيل وهم يمزحون فيما بينهم ويضحكون كما يؤخذ ذلك من الفصول المضحكة التي تخلل رسوم

(١) الطبائع والاخلاق (٢) متحف قصر النيل

حوادث الصيد والرقص ومعارك الفلاحين . ولم نرَ في تلك الرسوم اثرا للقسوة بخلاف ما نراهُ في رسوم الشعوب المعاصرة كالكلدانيين والاشوريين الذين لم يخشوا ان يعرضوا فوق تماثيلهم افظع المناظر الوحشية

ولم تكن علامات البشاشة والدعة في الدروج المكتوبة التي اتصلت بنا — من قوانين ادبية ومدنية — باقل مما هي في الصور والتماثيل اذ قد نصَّ فيها عن العلاقات بين الطبقات العليا والسفلى . ولم تخلُ كتابة منها من تعاليم المرأة بالضعيف وحب العائلة وطاعة الوالدين

وان هذه التعاليم والحكم موضوعة بروح البساطة في شكل يمثل رب عائلة لا يجعل القوة مصدر سلطته بل يريد ان تكون تلك السلطة نتيجة طبيعية لحب متبادل . واحياناً لم تكن العائلة تراعي لربها خاطراً او مزاجاً

وقد اكتشفت درج عجيب من البردي وهو محفوظ الآن في متحف " ليد " (١) يظهر منهُ ان زوجة اخذت تقلق راحة زوجها بعد عماتها فشكا حالهُ بلطف قائلاً "لقد اعطيتك كل ما اردت من الخبز والفاكهة والمشروبات . وكنت افعل كل ما كنت تريدين . وانت الآن تعودين لتزعجيني بعد موتك "

وقد اغار على مصر كثيرون من الغزاة من اول عهدها . فتحت المرة بعد المرة في القدم . والقدم اغارة عرف خبرها في التي شنها الهيكسوس او " الملوك الرعاة " . فانتشر بهم في مصر عنصر جديد متبربر . واصبح زعماؤهُ فراعنة حقيقيين وتزيَّوا بزي الفراعنة السابقين وانشأوا لهم بلاطاً كبلاطهم

وبقي معظم الجيش الفاتح معسكراً في جهة منعزلة شرقي الدلتا الاَّ ان قسماً منهُ تفرق في وادي النيل واقام فيهِ فاضيف بذلك الى العناصر الاصلية عنصر اسيوي جديد . اما ان ذلك العنصر هو "سوري" او "فينيقي" او "عربي" او "حثي" فذلك امر لا يهمنا بل يكفي ان نعرف الآن انهُ كان يختلف عن العنصر المصري القديم وانهُ لم يمضِ قرن على زوال حكم " الملوك الرعاة " حتى فني بامتزاجهِ بقية السكان دون ان يلحق بهم تغييراً بوجه من الوجوه كما يظهر لنا ذلك من تماثيل " طيبة "

على انهُ كان يتهدد العنصر المصري خطر اشد من ذلك بكثير . فان عظماء الفاتحين من ملوك العائلة الثامنة عشرة والعائلة التاسعة عشرة جلبوا اليها في مدة اربعة قرون الوفاً من الاسرى رجالاً ونساء واسكنوا بعضهم في المدن حيث اقتحم اهلها عبيداً واماء واقام بعضهم في

(١) وهي مدينة شهيرة في هولندة

المزرع ليفلح الارض . غير ان فريقاً منهم بقي في حالة الاسباط والعشائر كالعبرانيين مثلاً

وانهُ بالرغم عما امتزجت به العناصر الاصلية من الدم الاجنبي الذي كان يفد الى مصر بلا انقطاع من الحبشة او من آسيا فلسنا نرى تغييراً محسوساً في صفات السكان العامة . فاذا فحصتم اللغة وجدتم انها انتبست عن اولئك الاسرى بضعة الفاظ سامية وليبية او بربرية ولكن تلك الالفاظ ليست بذات اهمية تقتضي تغيير متن اللغة او قواعدها . اذهبوا الى المتحف تروا اشكال الناس في تماثيل ذلك العصر وفي تماثيل العصر السابق لهُ واحدة على الغالب

ولو اعتبرتم ان مصر كانت كجميع البلاد الغنية ذات مدارس لكل منها تقاليد محلية خاصة واعتبرتم خصائص الافراد وازياءهم واسلحتهم وزينات رؤوسهم وتصورتم التماثيل عارية عن الكساء لوجدتم الرجل الذي تمثلهُ عائلاً بجملته للرجل الذي تمثلهُ تماثيل عصر الاهرام فان العناصر الاجنبية اجتازت البلاد وامتزجت بعناصرها ولكنها لم تغير شكل مكانها

ثم عقب ذلك مجيء " الليبيين " الى مصر . وكينية مجيئهم انهُ بالنسبة لرقة المصري وكرهه للحرب — ولو انهُ يحارب بثبات جاش عند الضرورة — قد رأى الفراعنة ان يستعيضوا عن نقص الروح الحربية في المصريين بتجنيد رجال اسيويين او اوربيين بالاجرة . وكان " الليبيون " في ذاك الحين قبائل تتكلم بلغات بربرية وتقطن الواحات والبلاد الواقعة في الصحراء الغربية . فاسكنهم فراعنة العائلتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين في عواصم القطر . ثم ان كلاً من الاكابر وامراء الاقطاعيات الذين كانوا يقتسمون البلاد في ما بينهم في ذلك العهد جمع حولهُ من وجدهُ منهم في دائرة اقطاعيته لكي يتولى الدفاع عنها من هجمات الامراء الآخرين

وتبع " الليبيين " " الاشوريون " والفرس فاليونان فالرومان

وقد بقي اليونان مسلطين على مصر وبقيت لغتهم لغة حكومتها الرسمية ما يقرب من تسعة قرون . ومع ذلك فانهُ حالما سقط النفوذ "اليوناني" من مصر على يد عمرو بن العاص لم يكن الشعب المصري — ذلك الشعب الخالد يختلف في شيء عما كان عليه في زمن ملوكه الوطنيين الاقدمين

وبالاختصار لم يأت زمن الفتح العربي الاَّ وكان الشعب المصري قد استوعب جميع العناصر الاجنبية التي جاءت بلادهُ على التتابع . وقد كان التأثير الذي انتجتهُ تلك العناصر على تركيبه من الوجهتين المادية والادبية ضعيفاً الى درجة لم يتغير معها شكلهُ اقل تغيير ظاهر على انهُ قد حدث حوادث ذات شأن كان يمكنها ان تغير المصريين تغييراً كبيراً .

ذلك ان الديانة الوثنية القديمة تلاشت وحلّت محلها ديانة جديدة هي الديانة المسيحية . وليس في العالم شيء له سلطان على تغيير امزجة الشعب كملاشاة ديانة قديمة واحلال ديانة جديدة محلها . وعلى ذلك كان يظن ان طباع المصريين تتغير بعد ان يصيروا مسيحيين

ولكي نفهم من هم المصريون نقول : ان الصفات التي تقوّم شعباً من الشعوب ليست في الحقيقة الاّ صفات الافراد قليلين جدًّا من افراده وهم الذين تضمهم معارفهم او ثروتهم او مزايا موروثة فيهم فوق غيرهم اما عامة الشعب فهي في الواقع ككتلة لا شكل ظاهر لها ولا صفات معينة تعرف عنها فهي تتشكل بشكل الاقلية وتتشخص بشخصيتها

فلو اعتنق عامة الشعب فقط الديانة المسيحية فقد كان يمكن الاشخاص الذين عهدوه اليها ان يبدلوا اخلاقهُ وخاصياتهِ الاولى بالاخلاق والخاصيات المسيحية الجديدة ولكنهُ تبع الطبقات الوثنية العالية . وتلك الطبقات بعد ان قاومت المسيحية زمناً اندفعت في تيارها . فاعتنقها ابناء قدماء الكهنة الوثنيين والمتعلمون وكبار الامراء اصحاب الاقطاعيات الاّ انهم احتفظوا بكثير من الروح المصرية القديمة

وقد قيل ان الكنيسة المسيحية الاولى كانت ترضع من ثديين هما " انطاكية " و" الاسكندرية " . فاما المصريون المتنصرون فقد مثّلوا دوراً يمكننا معرفتهُ بمعرفة ما كانوا عليهِ قبل اعتناقهم الديانة المسيحية . وواضح ان المصريين كانوا في زمن عبادة الاوثان حاذقين متوقدي الذهن كثيري الاشتغال بالمباحث الروحية واللاهوتية . وقد بقيت معهم كل هذه المزايا الى ما بعد تنصرهم . ولست في حاجة لان اطيل الكلام عما ادخلوهُ من التغيرات الدقيقة في مبادىء " الجنوستيك "

ولو اردنا ان نذكر اعاظم اللاهوتيين المسيحيين الذين تشرف بمكانتهم الكنائس الشرقية والغربية فهل نجد اعظم ذكاء واكثر تعمقاً من " اكليمندس الاسكندري " و" اوريجانوس " والاباء الذين استطاعوا نشر قانون الايمان المعروف بقانون " اثناسيوس "

وقد عاد الى مصر مع الدين في ذلك الحين حركتها وصناعتها ونبغت في ذلك حيث لم تكن تستطيع ان تصرف شيئاً من قواها الى المسائل السياسية التي كان قياصرة مملكة الروم يحرّمون عليها البحث فيها

ثم نشأ في مصر جمهور من الكتّاب الاقباط . وكان اهم نوابغهم قوسماً ورهباناً نذكر من بينهم (باخوم) و (شنوده) و (ساويرس الاشموني) و (بسنتي) . ففي هؤلاء انفجرت روح الذكاء المصري القديم الذي كان معروفاً عن اجدادهم في الازمنة الفرعونية

وعند ما تفحص الصور والنقوش البارزة الموجودة على جدران الاديرة نرى في القديسين الشكل الذي نراهُ على مقابر (طيبة) او (ممفيس)

ولكن في هذا الحين وجد عامل جديد هو الفاتح العربي . فهل كان ذلك الفاتح قادرًا على هدم عمل الماضي وقطع التقاليد والخلقات الجنسية التي بثبت متصلة حتى مجيئهِ

ان الفتح العربي قد تم في كل انحاء العالم في قرن واحد تقريبًا فانتشرت القبائل العربيَّة في اثنائهِ بين كل الشعوب في جهات آسيا وافريقيا ووصلت في اوربا حتى جبال البيرنيه[1] وبما ان الفتح قد اشغل العرب فقلما كانت تسمح لهم الفرصة بتنظيم فتوحاتهم . حتى انهم في بدإ الامر عهدوا الى البلاد التي اخضعوها ان تحكم نفسها بنفسها . وقد عثرنا من اوراق البردي اليونانية والعربيَّة التي اكتشفت ان العرب اكتفوا هنا وفي الاماكن الاخرى اثر مملكة (الروم) ووضع خلفاؤهم انفسهم موضع الامبراطرة واتبعوا خطتهم وباشروا سلطتهم من كل الوجوه فكانوا يحكمون البلد بعدد قليل من القواد والجنود ولم يحاولوا استعمارهُ بسكان منهم . وقد كان عدد المهاجرين الاعراب قليلاً الاَّ في نقطتين او ثلاث جعلوها مقرًّا لهم كمصر والاسكندرية واصوان . وفي ما عدا هذه الاماكن لم يكن يوجد غير عدد قليل من الحاميات العربيَّة

وقد بقي المصريون قابضين على زمام الادارة وبقيت الاوراق الرسمية تكتب باللغة اليونانيَّة او القبطية . اما اللغة العربيَّة فلم تبلغ المكان الاول الاَّ ببطء شديد

ولم يكن كل ما اجراهُ العرب حتى ذلك الحين يكفي لتغيير العنصر المصري فضلاً عن انهم لم يعملوا في مبدأ دخولهم على دعوة المصريين الى الاسلام بل تركوا للمسيحيين اعظم نصيب في شؤون الادارة . على ان هذا الامتياز الذي تمتع بهِ المسيحيون ربما كان احد الاسباب التي آلت بهم الخراب . فانهم اغتروا بما وجدوهُ بين ايديهم من السلطة واستهانوا بقوم سادوا عليهم لقاموا بثورات اقتضى قمعها معاملتهم باشد انواع القسوة

واني اعتقد ان الاسلام لم يدين بهِ عدد يذكر من المصريين قبل زمن الخلفاء الفاطميين الذين صار الاضطهاد الديني من عهدهم مريعًا لا يطاق . ويمكن الحكم على قسوته وفظاعته من اخبار الشهداء التي وصلت الى ايامنا . وقد بقي الاقباط المسيحيون من ذلك الحين مهددين بالاضطهاد الدائم . وكانت تتناوب ايامهم فترة من السلام وفترة من المصائب المتكررة على ان الحاكم المسلم لم يكن في استطاعته الاستغناء عن المسيحي الذي كان يدير لهُ

(١) وهي المتاخمة لحدود اسبانيا من الشمال وفرنسا من الجنوب

املاكه غير انهُ كان من الجهة الاخرى دائماً يحسدهُ على ثروته ولم يكن امام الاقباط غير طريق واحد لتحسين حالتهم وهو اعتناق الاسلام . ففعل بعضهم ذلك . ومع هذا فقد حافظت الاغلبية على دينها وقاومت مقاومة الابطال حتى انهُ عند دخول الاتراك في القرن السادس عشر كانت في الاكثرية في الوجه القبلي . غير ان الاتراك كانوا اشد قسوة من المماليك فاتبعوا انظم الطرق لاخضاعها . وذلك انهُ نشبت ثورة من مسيحيي الوجه القبلي ما بين سنتي ١٥٣٠ و١٥٥٠ فقبض الاتراك على الثائرين وذبحوهم ولاشوا المدن المسيحية الواقعة في سهل " طيبة " اثناء تلك القلاقل

اما الذي جرى بعد ذلك فلم ندرِ عنهُ شيئاً لاننا لم نعثر على كتابات تتعلق بهِ . ولكن الامر المؤكد هو ان سكان الصعيد كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الاولى من القرن السادس عشر اي في بدء حكم الاتراك . ويؤخذ من بقايا المكاتب التي كانت في ذلك العصر ان العنصر القبطي كان قوياً عزيز الجانب في تلك الانحاء

لم يمر على ذلك غير قرن ونصف حتى قُدِّم لاحد السياح من معاصري لويس الرابع عشر آخر قسيس قبطي يجيد التكلم باللغة القبطية ويجوز تنازعهُ ذلك الامتياز . ومن ذلك الحين اقتصرت اللغة القبطية على ان تكون لغة الطقوس الدينية

ومع استعمال الاقباط للغة العربية فقد بقوا محافظين على دينهم غير ان كثيراً منهم اكرهوا على تركهِ في احوال يجهلها . والذي نعلمهُ فقط هو ان الاقباط الذين انضموا الى " علي بك " في ثورته ضد الترك نالهم اضطهاد وبيل . وقد وصلوا الى احط الدرجات في آخر القرن الثامن عشر

وها نحن قد وصلنا الى القرن التاسع عشر ومن هذا البحث البسيط الذي انتهيت اليهِ ترون الجواب المطلوب على السؤال الذي طرحتموهُ في مبدإ الامر

ينقسم سكان القطر المصري اليوم دينياً الى قسمين عظيمين . يتألف احدهما من الاقباط ومعظمهم ارثوذكس . ويتألف الاخر من المسلمين . فاما الاقباط فهم سكان البلاد الاقدمون الذين بقوا على ما كانوا عليهِ بلا تغيير . ولكن من هم المسلمون

ان اكثر المسلمين مسيحيون اصلاً اعتنقوا الاسلام . فهم اذاً مصريون ايضاً . ولكن هل بقي دمهم مصرياً نقياً كالاقباط

ان القبطي لا يتزوج باكثر من زوجة واحدة وقلما يتزوج بالاجنبيات حتى في هذه السنوات الاخيرة فهو اذن قد بقي على ما كان عليهِ في اواخر العصر البيزانطي . اما المسلمون

فيتزوجون باكثر من زوجة واحدة . ثم ان جنب الرقيق قد ساعدهم من الجهة الاخرى على التزوج بكثير من النساء الاجنبيات أي جئن من الخارج فادخلن الى العائلة الاسلامية دماً جديداً . فعلى ذلك تكون نسبة الدم الاجنبي في المسلمين اكثر منها في الاقباط . ومع ذلك فقد بقي في شخص المسلم الشكل القديم الى درجة يصعب معها على الاجنبي ان يميز اليوم للنظرة الاولى فلاحاً مسلماً من فلاح قبطي

ففي هذا الدور ايضاً قد قامت مصر بعملها في تشكيل العناصر الاجنبية بشكلها وتطبيعها بطبيعها فعلت بالمسلم ما فعلته بالوثني في العصور الماضية واقتنه مصرياً

النتيجة

ان النتيجة بسيطة جداً وهي انهُ لا يوجد مصران واحدة مسلمة والاخرى قبطية . بل توجد مصر واحدة

وان مسألة مسلم وقبطي هي مسألة دينيةٌ فقط . ونحن ايضاً لدينا في بلادنا وطنيون من اديان مختلفة ما بين بروتستان وكاثوليك ولكن جميعهم لرنسا ويون

وان قليلاً من التسامح وقليلاً من حسن الادارة من الجانبين يكفيان لان تدركوا ايها المسلمون والاقباط انكم شعب واحد

نشوء الاجرام السموية

لا مشاحة أن الذي يحث ترتاح اليهِ النفس واهم معرفة يتوق العقل الى الوصول اليها الوقوف على اسرار الكون وكيفيةُ نشوء الاجرام السموية اي كيف وجدت السيارات والاقمار وما علاقتها بالشمس . او ما هو ماضيها ومستقبلها ومصيرها وما هي العلاقة بين الاجرام على اختلاف انواعها من سُدُم وقنوان وثوابت

نعم ان الاجوبة على هذه الاسئلة من باب الظن او الترجيح وليست من باب الجزم والتأكيد لكن الطرق الموصلة الى ذلك تنطبق كلُّ الانطباق على قواعد العلم الصحيح وتختلف عن غيرها من الابحاث العلمية في طول الازمنة المتعلقة بها حتى تُعدُّ بملايين السنين وعدم المقدرة على اجراء التجارب والامتحانات

ولم تكن مطامح الانسان لتقف بهِ عند حد ما وصل اليهِ الاقدمون من وضع القواعد والحسابات الرياضية التي تتوقف على قوانين الجاذبية لتعليل سير السيارات وغيرها مما هو